

اثنتا عشرة قصة قصيرة

نجاح الجبيلي

١- الاختيار

أنا راوٍ كلي عليم وكما تعلمون أن هذا الراوي يعرف الشخصيات ظاهرها وباطنها، و سلوكها وأفعالها وأقوالها، وحالاتها النفسية والفكرية والعاطفية، وما ستؤول إليها مصائرُها، وها أنا أبحث عن أحد لكي ألج ذهنه وأرى ما يدور فيه وأحكيه لكم... ها هو رجلٌ يبدو أعزب في عزلته يفترش العشب ويقرأ إحدى سونيتات شكسبير. كان كلما قرأ بيتاً أو بيتين همهم مع نفسه كأنه يحاور شكسبير:

* أخوفاً من أن تُغرقَ عيني أرملة بالدموع تفني نفسك في حياة العزوبة؟

فيرد قائلاً:

- مرحى بالعزوبة إذا لم تكسر قلب إنسان.

* آه، إنك إذا حدثت أن متّ دون نسل سينوح عليك العالم مثل زوجة ماتَ بعلمها.

- فلينح عليّ العالم.

* سيكون العالم أرملة، وسيظلُّ ينتحب لأنك لم تترك وراءك صورةً منك.

-أنا صورة نفسي.

* في حين أن كل أرملة تحفظ، بعيون أطفالها، صورة زوجها في قلبها.

- وما فائدة الأطفال والسيد المسيح يقول: إذا عاشوا فتنوا وإذا ماتوا أحزنوا.

وحين وصل الأعزب إلى آخر بيتين يسمّيهما شكسبير زبدة القصيدة:

*ومن يقترف ضد نفسه هذه الجريمة النكراء لا يمكن أن يحمل حبّاً لأحد.

دمدم مع نفسه:

-إنها ليست جريمة بل اختيار.

ثم أضاف وهو يقهقه:

-لكنك يا شكسبير ألم تقل لصبيك الجميل: لقد صاغتكَ الطبيعة لتكون ختماً لها.. ها...ها...ها.

وهنا نهض الأعزب وشبح الابتسامة مرتسمة على محياه وراح يخط بقدميه باتجاه النهر الذي يشق المدينة حتى إذا وصل الضفة قذف بالكتاب باتجاه النوارس، وحين سقط على صفحة المياه هبطت إليه النوارس وتفحصته بمناقيرها الحمراء ثم ما لبثت أن طارت مرة أخرى بعد أن لم تجد له طعاماً.

٢- الحبل

كان حبلًا عادياً، لكنه عاش حيوات كثيرة. جرّ سفينة متهاكة فوق الماء، ثم صعد إلى السقف ليمدّ للبهلوان مسار التوازن. ثم هبط ليشدّ حيواناً هائجاً، ويسحب دلواً من بئر عميقة، ويتسلق جبلاً على كتف مغامر. في بيت صغير شدّته امرأة لتعلق غسيلها، وفي الساحة اقتسمه الأطفال طرفين، يسحبونه ويطلقون الضحكات الرنانة، بينما كانت الفتيات يقفزن تحته في لعبهن. وبين نخلتين ثبتته فلاح كبير السن صانعاً منه أرجوحة أجلس فيها حفيدته الصغيرة وراح يهزها عالياً. عرف الحبل كل الأدوار، بين القسوة والبراءة. ظلّ يتأرجح بلا يقين، كأن الأدوار كلها ما زالت ممكنة... إلى أن أطبق في مطافه الأخير على رقبة.

٣- الصرخة

كانت نظرة عينيه وحشية وهو يطلق صرخة حادة، يتردد صداها في الوادي. صرخة انطلقت من فمه الفاجر الذي يبعث رائحة عطنة لدخان سجائر تتسلل من بين أسنانه المنخورة. تنسرب الصرخة من بينها وتمرّ بلحيته التي ابيضّت بعد مرارة العزلة التي تضفي على روحه الحزن الشفيف. هبطت الصرخة كالموجة العظيمة على وريقات العشب الرقيق الذي ترفرف فوقه فراشات صفر وبرتقالية، فجفلت و طارت ثم حامت حول لحيته البيضاء. لم يطردها، بل راقبها بهدوء، ثم مدّ اصبعيه الإبهام والسبابة المبتلين ببقع سود وكاد أن يمسك بها من أجنحتها، لكنها طارت تاركة على إبهامه وسبابته مسحوقاً ذا لون مزيج من الأصفر والشذري.

٤- الصرصار

كنتُ أجلس في الردهة على فراشي المغطى بملاءة بيضاء متكئاً على وسادة مزخرفة بأزهار وطيور وأطالع كتاباً لكافكا عن إنسان يتحول إلى صرصار. كانت رائحة الديتول

تطغي على الجوّ الهادئ بعد فترة التنظيف بينما كان يصل إلى سمعي حفيف تنورة الممرضة وهي تمرّ بالقرب مني. فُتح باب الردهة وأطلّ من خلاله خادم يرتدي صدرية بيضاء وقبعة بنية. انحنى على سلّة المهملات وأفرغ محتوياتها في وعاء أصفر كبير يسير على عجلات، وفجأة انسلّ صرصار صغير من السلّة وزحف بسرعة على السجادة المزركشة المفروشة على الأرضية. نظرَ إليه الخادم متوجساً وحاول أن يسحقه بقدمه اليمنى التي ترتدي حذاءً ثقيلاً، لكن الصرصار سرعان ما انزلق هارباً واختفى تحت سريري. بقيتُ انظر إلى الممرضة وهي تزرّق الإبرة لمريض يرقد قربي ثم تغادر الردهة، وحين ترك الخادم الغرفة أيضاً رجعتُ أقرأ في كتاب كافكا مرة أخرى وفجأة رأيتُ الصرصار يزحف على الملاءة ثم إلى سطح الكتاب ويستقر بالقرب من عنوانه فكان لونه البني يشكل تناسقاً مع لون غلاف الكتاب الرملي. بقيتُ ساكناً وشعرت بشيء من المتعة وأنا ابتسم في داخلي، وأرى الصرصار وهو يحاول أن يحكّ رجليه على الغلاف الصقيل ويصدر صريراً. تساءلتُ في سرّي:

- هل هذا هو غريغوري سامسا الذي تحول إلى صرصار ويريد الآن أن يعود إلى رحمه الأصلي.

وبقيتُ أتأمله ملياً ولم أفق من تأملاتي إلا على صوت الطبيب وهو يطالع سجلي المرضي، فنهضتُ ووضعتُ الكتاب على المنضدة من الجهة التي تموضع فيها الصرصار، وكنتُ حذراً أن لا ينسحق تحته، لكنني شعرت بالطمأنينة لأنّ صريره بقي يملأ الغرفة.

٥- النورس

إلى الشاعر عبد الله حسين جلاب

كان شابٌ يجلس مع فتاة على مصطبة تطلّ على الشط خلف تمثال السياب. كانا يحدقان في نورس وحيد يجثم على عمود حديد في وسط المياه الهادئة في أمسية شتوية. سألها وهو يشير إلى الطائر:

-ماذا ينتظر هذا النورس؟

فأجابت:

-ربما ينتظر طفلاً ليلقي إليه رقايات البطاطا.

وأضاف:

-أو أنه ينتظر امرأة جميلة مثلك لتلتقط له صورة.

فكرت الفتاة وقالت مبتسمة:

-بل أنه ينتظر شاعراً ليدون له قصيدة.

وهنا طار النورس وحوّم بجناحين بيضاوين حول تمثال شاعر المدينة.

٦- أوديسا وجيزة

أعبر الزورق البخاري ومياه الشط تداعب كفي وطفلاً يطلّ على صفحة المياه مبتسماً،
يقترّب الزورق من المنصة الحديدية الطافية على الماء، فأضع قدمي المسطحة على الضفة
الأخرى للنهر، وأصعد إلى الرصيف. الجو رائق وأشعة الشمس تمرّ برفق على التمثال
البرونزي لشاعر المدينة، وثمة فتيات رشقات يتحلّقن حوله ويلتقطن الصور التذكارية.
يقترّب مني ضحيج طلاب في سفرة مدرسية وسفينة تمخر عباب الشط ويتسلل منها صوت
مغنٍ يرسل أهاته الحزينة، وأغذي السير إذ أرى الغرائق بيضاء ناصعة إزاء الخضرة
القائمة للأشجار، غير أبهة لضجة المدينة من سيارات كبيرة وصغيرة وعربات ومكائن.
أعبر إلى الجهة الأخرى من الشارع وارثشف استكانة شاي لذيذ وكان البائع يعتمر كوفية
حمراء ويضع مذياعاً على عربته ينطلق منها صوت أنثوي ملائكي رقيق.

أفكر: في هذا الخريف يرسل الماضي أوراقه الصفراء الداكنة وأنا يتآكلني صداً النسيان
وتحوم أخطائي وتنقض على روعي الضامرة... التي تأسى لكل شيء يحمل ألماً.. لكائنات
كبيرة كالأسد المحتضر وأخرى صغيرة كالنمل المسحوق.

أجلس في المقهى ارتشف القهوة فأرى أمامي في الدكان المقابل صورة جيفارا على كارتون
يحمل فحماً. فيعقد ذهني صلة بينهما: الفحم وتشي كلاهما استطاعا أن يوقدا النار.

٧- ضد داروين

بعد رحلة مرهقة لكنها جميلة على ضفة شط العرب عبرنا أنا وصديقي إلى مقهى قريب
لنستريح ونرتشف الشاي والقهوة ثم تحدثنا قليلاً ونحن نرى النوارس وهي تحوم حول بقايا
الطعام إذ تحلّق قريباً منا ثم تبتعد إلى وسط المياه.

وساد الصمت بيننا فترة وجيزة وأنداك شاهدنا فيلماً عن الحيوان في التلفاز، ولفت انتباهنا
مشهدٌ لثيران برية وهي ترفع بقرونها مراراً أسداً عالياً في الهواء ثم تسقطه على الأرض..

كان الأسد يريد أن يفترس ولد الثور الصغير... فهجمت عليه الثيران وهرب منها فزعاً مبتعداً في أحراش البرية.. ضحكنا وقلتُ لصديقي:

- هكذا هرب ملكُ الغابة!

قال:

- إنه ليس ملك الغابة... الطير هو الملك فهو يحلّق ويذهب إلى ما يحلو له من الأمكنة ويقفز من شجرة إلى أخرى ويشرب ويأكل من أطيب الطعام.

ثم شاهدنا أسداً يحتضر في عمق البرية بعد أن لم يعد قادراً على العثور على فريسته لعدة أيام. تسلل خيط الأسى إليّ وأنا أراه فتساءلتُ كيف أن قدره محكوم بالحصول على أرطال من اللحم له ولأشباهه.

قال صديقي:

- لا تحزن.. هذا هو قانون الطبيعة.. لكن حتى القوي يمكن أن يُهزم ويموت ويبقى الضعيف..

قلتُ:

- يعني الطبيعة تنتخب خطأً.

قال:

- نعم أحياناً عكس ما يقول داروين.

٨- عزاء الكتب

حين وقعتُ حربُ الثماني سنوات، قرأتُ "لِمَنْ تقرر الأجراس؟"، ثم استعارها صديقي وضيّعها في الفاو.

في حربِ الكويت، قرأتُ "الساعة الخامسة والعشرون"، وتركتها في الصحراء

أثناء الهروب الكبير.

بعد الاحتلال، قرأتُ بل قلتُ "وداعاً للسلاح"، لكن القعقة عادت من جديد.

في انتفاضة تشرين، قرأتُ "سيكولوجيا الجماهير"، وبدا لي أن فورة الشباب

لا تفسرها نظرية.

أما في زمن كوورنا، فأعدت قراءة "الطاعون" لكامو، واقتبست شذرة كافكا:

الكتاب هو الفأس الذي يحطم الجليد داخلنا.

٩- عصافير الأمل

على مائدة العشاء، وبعد أن انطوى الغسق واستقرّ الليل، وجدتني أتمتم بأغنية "يا حريمة" [يا حريمة... انباكت الجلمات من بين الشفايف]. كنتُ أكاد أبكي وأنا أتأمل هذه الحياة الجميلة وهي تبدو، في لحظة خاطفة، كأنها توشك أن تتحول إلى رماد، بعدما شهدت من الحروب والتشرد والحصار والمنافي والاحتلال ما يكفي لأن يثقل ذاكرة إنسان بأكملها.

غير أنّ الحياة تعرف دائماً كيف تشعل شمعة صغيرة في أكثر اللحظات عتمة. فقد رأيت طفلي تحمل رسماً لفتاة تمسك سلة من الأزهار، فسألتها:

—ما هذه الأزهار؟

قالت مبتسمة:

—نرجس.

ضحكتُ من أعماقي، فقد كان اسمها هي أيضاً نرجس، وكان الزهرة استعارت اسمها منها، أو لعلها هي التي استعارت اسمها من الزهرة.

ظللت في البيت، وقد تصالحت مع نفسي وشعرت بشيء من السكينة. تناولت رواية "نوسترومو" لجوزيف كونراد، وهي هدية ثمينة من صديقي بعد إحدى زيارته إلى شارع المتنبي. أخذني سحر السرد، وأدهشني البناء الروائي، كما أسرتني شخصية بطلها المكافح الذي يواجه تقلبات المصير بعناد وإصرار.

ثم أفسحت المجال للموسيقى. استمعت إلى مقطوعات لبيتهوفن وشوبان وموزارت، فشعرت بأن أنغامهم تعيد إلى الذهن صفاءه، وتمنح الروح قوة هادئة لمقاومة الذكريات التي ما تزال تطرق أبواب الذاكرة بين حين وآخر.

وفي ختام الليل شاهدت فيلم "سوناتا الخريف" وحين كان الفجر على وشك الانبلاج، بدأت العصافير، كعادتها، تخرش زجاج نافذتي. كانت تعرف مواعيدها جيداً، وتطالب بحصتها من الحب والماء. فتحت الشباك، ووضعت لها وعاءً من البذور وآخر من الماء، وأنا أشعر أن هذا الطقس الصغير، المتكرر كل صباح، ليس مجرد إطعام للعصافير، بل مصالحة يومية مع الحياة، ورسالة صامتة تقول إن الأمل، مهما بدا هشاً، يظل قادراً على أن يوقظ النهار.

١٠ - مقصلة

يوميًا حين أستيقظ من نومي أرى أمامي كتاب "المقصلة" على المنضدة التي تبعثرت عليها مجلدات أخرى ودفاتر وأوراق وكيس كلينكس بالقرب من صوبة وسلّة مهملات. كان وجه "كامو" يطل من غلاف الكتاب وهو يحدّق بنظرات حادة وعينين جريئتين، شعرتُ أنه يخاطبني قائلاً:

- ستهبط يوماً يا عزيزي بقوة وتنغرز في لحمك الطري حارّة لامعة، فتنحطم العظام وتصغي إلى صريرها.
- أين؟ في الجحيم؟
- بل في هذه الحياة.
- لكن الحياة أوشكت أن تنتهي ولم تهبط المقصلة.
- ستسقط ويظل حبلها يتأرجح مثل رقاص ساعة، يحسب الزمن لحياة انتهت في العبث.
- العبث! هذه الكلمة التي نحتتها أنت وظلت الأجيال تعبُّ من نبيذها الحلو المر.
- كيف؟
- يا لها من كلمة كانت تتلوى على شفاه شباب ١٩٦٨ وهم ينتفضون عند متاريس باريس.
- لم أشهد ذلك!
- نعم، بل شهدا صديقك سارتر الذي تخاصمت معه فيما بعد حول فظائع ستالين.
- لم أكن أطيعه حينذاك.
- لكنه رثاك فيما بعد. وربما شعر بالذنب لو عاش سنوات أخرى؟
- لماذا؟
- لأن نبوءاتك تحققت.
- سكت ولم ينطق بكلمة وتصويرته وقد اختفى وجهه الذي لوحته شمس المتوسط من غلاف كتاب "المقصلة"، فبقي عنوانها يهددني خلف بحر لازوردي.
- ولكي أزيل مخاوفي غيّرتُ روتين المكان ثم أخفيتُ "المقصلة" بين صفوف الكتب الأخرى.

١١ - موسيقى

كنتُ أضع هاتفي المحمول على كتاب "البيت والعالم" لطاغور، وثمة أنغام جميلة ورقيقة تحوم في جو الغرفة شديد الإضاءة. عنوان المقطوعة كان يشير إلى "الأباسوناتا" لبيتهوفن. كان وجه طاغور المرسوم على الكتاب يطلُّ حزينا بتسريحة شعره الخشن الرمادي وعينه السوداوين وشاربيه الكثين الملتحمين مع لحية طويلة تتسدل حتى عظمي كتفيه. الصورة ساكنة في الكتاب بينما تتحرك أنامل عازفة الأباسوناتا بشكل رشيق على البيانو، ثم تنتقل الكاميرا إلى لقطات متوسطة لجسمها وهو يتمايل يمينا ويسارا بالتناسق مع رأسها المليء بغزارة الشعر الذهبي، بينما يظل الجمهور صامتا وهو يصغي بانتباه شديد لألق الألحان. كانت صورة طاغور تنطبع على خلفية سوداء، وكانت أذناه تبرزان جزئيا من تحت شعره الرمادي وكأنهما تصغيان بانشداه إلى موسيقى بيتهوفن. طاغور الشغف بالموسيقى ربما يُعلن من خلال نظراته العميقة انبهاره بموهبة الفنان الأصم. كانت الفاصلة بين الفنانين تمتد طويلا، لكن بيدوان في هذا المشهد "روحين تملأ الموسيقى الفضاء اللانهائي بينهما" كما كان يقول البنغالي. استفيق من حلم يقظتي وأرفع هاتفي المحمول وأصوات تصفيق الجمهور المتحمس وقائد الأوركسترا ينحني أمامهم وييدي علامات الفرح والجمال. يظل طاغور كأنه يرسم ابتسامة مرحة من خلال صورته على الكتاب وكأنه يخاطبني ويقول: "العالم يكلمني بالألوان، فتجيبه روعي بالموسيقى".

١٢ - همزة

فتاة ترتدي الأسود وتتأرجح على كرسي مطعم شعبي، تهش كلبا ضالا منتصبًا أمام محل لتجليد الكتب، فيما أوراق كتاب مهترئ توشك أن تتناثر بفعل ريح الزقاق. بجانب دكان صغير يجلس رجل وامرأة مانيسان عاريين، وكأنهما يصغيان إلى صفارة الشرطة وهي تُخلّي أماكن الباعة المتجاوزين. في المكتب يسألني رجلٌ عن همزة في كلمة وهو يطبع أمام الحاسوب: هل تجلس على كرسي أم وحدها؟ ثم يبتسم. حين تقترب سيارة الشرطة من الزقاق تهرب الفتاة وينبح الكلب وراءها، وتتناثر أوراق الكتاب، بينما يقع الرجل والمرأة المانيكان على وجهيهما، أما الهمزة فتصعد مع الغبار، تائهة بعد أن خافت من أن تُخطّ خطأ.
